المحاضرة السادسة :

- **سوسيولوجيا الفن :النشأة و التطور**

من الصعوبة بما كان إيجاد تعريف لعلم اجتماع الفن , لكون جذور هذا الفرع لا ترجع إلى تاريخ علم الاجتماع و إنما إلى تاريخ علم الجمال و فلسفة الفن.

ظهرت البوادر الأولى لسوسيولوجيا الفن ضمن العديد من الكتابات في التاريخ الثقافي للفن و كذا ضمن أعمال العديد من المؤرخين , إضافة إلى أعمال علماء الاجتماع .

في حديثنا عن سوسيولوجيا الفن ارتأينا البدء بالبحث في أهم المراحل التي عرفها هذا الفرع العلمي من نشأة و التطور , و نعرضها ضمن مراحل ثلاث بالطريقة التالية:

المرحلة الأولى : الجمالية الاجتماعية (الفن والمجتمع)

لقد ولد علم اجتماع الفن على يد مختصين بعلم الجمال وتاريخ الفن, الذين كانوا منهمكين بالسعي إلى إجراء قطيعة واضحة مع التركيز التقليدي مع ثنائية (فنانين/أعمال فنية) بإدخالهم مصطلح ثالثاً في دراسات الفن وهو (المجتمع). وقد ظهرت نتيجة هاته المجهودات آفاق جديدة انبثق عنها اختصاص علمي جديد، غير ان هناك اساليب كثيرة لاختبار الاحتمالات المستجدة .

إن الاهتمام بالفن والمجتمع شكل لحظة البداية لتأسيس سوسيولوجيا الفن بالقياس إلى الجماليات التقليدية التي كانت تهتم إما بالفنان أو بجمالية فنه, أما بالقياس إلى التطورات التي حققها هذا الاختصاص فإنه يبدوا لنا اليوم عائداً لاتجاه تقادم عهده سيتحسن أن نطلق عليه اسم "الجماليات الاجتماعية". ان هذا الاهتمام بين الفن والمجتمع ظهر في علم الجمال و في فلسفة الفن في آن واحد في الفكر الماركسي وفي فكر مؤرخي الفن غير التقليديين, في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين, وباستثناء بعض الحالات النظرية النادرة اتخذ ذلك الاهتمام شكلاً نظرياً (تصورياً) طبقاً للتراث الفكري الألماني الذي ولد معظمه في كنفه, وما زالت تلك الجماليات السوسيولوجية مرجعية أساسية لما بقي زمناً طويلاً يدرس في الجامعات باسم سوسيولوجيا الفن.

إن جيل الجمالية الاجتماعية يعد امتدادا للفلاسفة القلائل الذين امتلكوا فكرة حول التحديد الخارجي الجمالي للفن مثل هيبوليت تين في كتابه : فلسفة الفن 1865, و شارل لالو في : الفن

والحياة الاجتماعية"1921, وقد خلخل هذا الجيل الزوج التقليدي الفنان/العمل الفني, واهتم بالعلاقة بين الفن والمجتمع, هذه الجمالية الاجتماعية الجديدة ظهرت عند العلماء الذين يندرجون ضمن الصنف الأول والذي يتمثل في:

التراث الماركسي: أصبحت مسألة الفن مع الفكر الماركسي سوسيولوجية بشكل واضح وغدت هدفا مركزياً, في سبيل تطبيق النظريات المادية التاريخية, على أن المفكرين الذين ينتسبون إلى الفكر الماركسي لم يجدوا هذا الفكر بالذات باستثناء بعض الآراء التي طرحها ماركس وجورج بيليخانوف وجورج لوكاتش وفرانسيس كلينجندر و لوسيان غولدمان وأرنولد هاوزر.

نجد أيضا فرانسيس كلينجندر في كتابه عام 1947 الذي بحث فيه عن العلاقة بين الإنتاج التصويري والثورة الصناعية التي بدأت منذ القرن الثامن عشر, ويرى بان الأعمال الفنية أسهمت في هذه الثورة أكثر مما كانت انعكاساً لها, وان الفنانين كانوا مشاركين في تلك الثورة.

نجد أيضا علماء مدرسة فرانكفورت الذين اقتربوا من سوسيولوجيا الفن عن طريق اهتمامهم بالعلاقات الموجودة بين الفن والحياة الاجتماعية, لكن بتبخيسهم لـ الاجتماعي والجماهير, وتثمين الثقافة والفرد ابتعد هؤلاء ليس فقط عن التقليد الماركسي, وإنما أيضا عن أصول سوسيولوجيا الفن, هكذا دافع ثيودور أدورنو في كتابه : فلسفة الموسيقى الجديدة 1949, عن استقلالية الفن والفرد ضد الجمهرة , بينما حاول والتر بنجمان عمل الفن وفترة قابليته لإعادة الإنتاج التقني, والربط بين المثال التقدمي والظواهر الثقافية وهما قيمتان خاصتان بالحرس السياسي والفني, من أجل تحليل الفن كوسيلة لتحرير الجماهير في مواجهة الاستلاب المفروض من طرف المجتمع.

يعتبر ثيودور أدورنو وماكس هوركايمر , أول من استخدما مصطلح الصناعة الثقافية في عملهما المشترك بعنوان ديالكتيك العقل عام 1944 , و يمكن القول بأن المقاربة النقدية تمثل في زمنها وبالتحديد من وجهة نظر تحليل الأشكال و المحتويات الايديولوجية للمنتوجات الثقافية الصناعية دراسة هامة جدا, وبالنسبة لهذين المنظرين النقديين, تساهم الصناعة الثقافية في صيرورة معقدة للتدمير الذاتي للعقل, حيث لا تشكل مقايسة و تسليع الممتلكات الثقافية سوى عرضين من بين أعراض أخرى, على عكس ما كان يدرك من قبل, حيث لم يكن هذا المفهوم مرتبطا بالتدقيق بالقطاع الصناعي الثقافي, مما يشهد على غياب البحوث الاقتصادية حول هذه النقطة بين الأعمال المختلفة لكتاب مدرسة فرانكفورت.

انطلق بعض رواد مدرسة فرانكفورت بتساؤل مؤداه: كيف يتمكن الرأسمال من خلق القيمة داخل مختلف الفروع الصناعية المرتبطة بإنتاج الممتلكات الثقافية, وتثبت دراسة تطور صناعة التسجيلات الصوتية (أو صناعة الأسطوانات) منذ بداياتها – منذ أكثر من مئة سنة – إلى وقتهم ووقتنا أهمية هذا الاشكال. لكن، بينما كان هذا التيار يجهد نفسه لتجاوز مفهوم الصناعة الثقافية عن طريق نقد ما يفترضه كتثبيت حول ظواهر تقييس وتبضيع الأعمال (من البضاعة), فإن المنظور التاريخي لم يتوان عن التأكيد على أهمية صيرورة البنية الفوقية في هذا الحقل الثقافي .

نجد أيضا جان ماري غويو في كتابه الفن من وجهة نظر سوسيولوجية 1887, يتحدث عن الفن كاشف للواقع , و الاهتمام بالظروف المادية للفن ليس انعكاس للظروف بل هو بناء و تنظيم , هذا التاريخ السوسيولوجي للفن تمت بلورته في أوربا حسب الظروف التي يعيش فيها العلماء ووقائع مجتمعاتهم وتطورها وذلك من طرف فالتر بنيامين, بيير فرانكاستل , روجيه باستيد, وغيرهم كثير من امثال هوبير داميش و أو جان دوفينيو.